نجوى الرافعى

أيها العزيز !

« فى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تفنى
وفى القلب تُحفَرُ القبورُ العزيزة التى لا تُنسى »

هكذا قلت(1) « وعواطفى تشيّع الميت الحبيب مطرقة صامتة » واليوم ماذا أقول ؟ أمَا إنك لتعلم – أيها الحبيب – أن الذى بينى وبينك دنيا تمشى الأحزان فى أرجائها نائحة باكية ... لستُ أكفر بأنعم الله علىّ أو عليكَ ... ، كلا ، كلا ! ! لقد ذهبتَ إلى ربك راضياً مرضياً فرحاً بلقائه ، مؤمناً بما زيّن فى قلبك من الإيمان ، وبقيتُ أنا لأبحث عن أحبابى بعدك ، ... لأفقد لذة المعرفة التى يفيض فيضها من الصداقة والحب ، ... لأتلدّد ها هنا وها هنا حائراً أنظر بعين أتق ، ... لأجدَ حرقةَ القلب وكدَ الروح وألمَ الفكر من حبى وصداقتى ، ... لأسير فى أودية من الأحزان بعيدة : أمشى وحدى ، وأبكى وحدى ، وأتألمّ وحدى ... لا أجدُ من أنفضُ إليه سرّ أحزانى ، ...

ذهبتَ وبقيتُ ... لأتعلّم كيف أنافق بصداقتى بعضَ النفاق لأنهم يريدون ذلك ، ... لأجيد مهنة الكذب على القلب لأنهم يجيدون ذلك ، ... لأتعلّم كيف أنظر فى عيونهم بعينين لئيمتين يلتبس فى شعاعهما الحب والبغض ، لأنه هو الشعاع الذى يتعاملون به فى مودّاتهم ، ... لأفنيَ بقائى فى معانيهم المتوحشة إذ كانوا هكذا يتعايشون ، ... لأحطّم بيدىّ بنيان الله الذى أمرنا بحياطته ، وأتعبّد معهم للأوثان البغيضة الدميمة التى أنشأتها أيديهم الدنسة القذرة ، ... لأجنيَ الثمار المرّة التى لا تحلو أبداً ، ولكنهم يقولون لى : هذا ثمرٌ حلوٌ ، فلماذا لا تأكل كما يأكل الناس ؟ ...

ذهبتَ – أيها الحبيب – وبقيتُ ... ، بقيتُ فى الحياة التى أولها لذةٌ وآخرها لذعٌ كأحرّ ما يكون الجمرُ حين يتوهج ، بقيتُ للحياة التى تريدُ أن تسلُبَ القلبَ براءةَ الطفولة لتملأهُ إثماً وخداعاً وشهوةً ... بقيتُ على الحياة فى الأرض التى تميدُ وترجفُ وتحتدمُ من تحتى ، لأنها تنكر الإيمان الذى يمد بسبب إلى السماء ... بقيتُ بقاء حبة القمح فى رمال الصحراء الجدبة لا أجدُ مائى ولا تربتى ... ولا من يزرعُنى ...

شدّ ما اختلفتْ علىّ أحداثُ الحياةِ من بعدكَ أيها الحبيب ! كنتُ أشكو إليكَ ما ألاقى من ظمأ الروح الظامئة ، وهى تطوف بحسراتها على ينابيع الحياة لا تنتهى ولا تستطيع أن تردَ ... كنتُ أبثُّك أحزانى وهى جالسةٌ توقِد النارَ على نفسى وتؤرّثها بأفكارى القلقة التى لا تهدأ ولا تنقطع ... كنتُ أشكو إليك آلامَ الشوكِ الذى تنبتُهُ فى قلبيَ الشكوكُ العاملةُ الناصبةُ التى جعلتْ همّها تعذيبى بالحيرةِ والخوفِ والحرمان ... والحقيقةِ المؤلمة أيضاً ... كنتُ أجدُكَ حين ينبغى أن أجدَك ، لأقول لك ما يجبُ علىّ أن أقول ...

شدّ ما اختلفتْ علىّ أحداثُ الحياة من بعدك أيها الحبيب ! وها أنذا أريدُ أن أجدَ بعدَكَ من أضعُ فى يديه الرفيقتين هذه الجروحَ الداميةَ النابضةَ التى أدمتها قلبى ... أريدُ أن أضعَ أفكارىَ التائهة فى بيداء الظنون المقفرة ، بحيثُ تجدُ من يتولى أمر إرشادها إلى روضة اليقين الناضرة ... أريدُ أن أجدَ ملجئى المؤمنَ حينَ تطاردُنى من الظنّ صعاليكهُ الكافرة ... أريدُ أن أعرفَ لذةَ الصداقة والحبّ حين لا أجدُ من الحياة إلاّ آلامَ صداقتى وحبى .. أريدُ ... أريدُ ! ... أريدُ منْ أقول له : ها أنذا بعذابى وضعفى وخضوعى ؛ فيقول : وها أنذا بصبرى وقوّتى وحبى لك ... أريدُ من أقولُ له : هذه جروحى التى تنفثُ الدمَ ، لا ترقأُ ولا تستريحُ ولا تبرأُ إلاّ على وعى من دمها ؛ فيقول لى : وهذا طبّى الذى يحسمُ هذا الدم لتستريحَ وتبرأ من ألم النزيف ، يا بُنىّ ... !

(يا بنى ...)، هذه طفولتى، أريد من يحنو علىّ بها حنو الأم على صغيرها الذى هو كل أشواقها الرقيقة من قلب نبيل رقيق ... (يا بنى ...) ، هذه طفولتى، أريد من يمسح بها أحزانى التى حيّرت بصرى لأعرف من بعد طريق رجولتى التى تريد أن تعمل وأن تسير وأن تصل إلى سر أشواقها البعيدة الجميلة ... (يا بنى ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يعرف أنى طفل وديع حين أؤوب من

(1) الرسالة : عدد (٢٠٢) فى ١٧ مايو ١٩٣٧

كدى وكدحى، فيتلقانى بين ذراعيه إلى قلبه لأشعر بحنان من الروح يطفئ غلتى، ويرسل فى أعصابى ريها من الحب، الحب الذى هو فجر الحياة بنعومته ورقته وطهره، الحب الذى يرد القلب المكدود الظامئ زهرة تتفتح فى جو من النور والندى والشباب ... (يا بنى) من يقولها لى يضع فى نبض أحرفها نبض الحب ...

أين أنت أيها الحبيب؟ كنتَ أخى وصديقى ومن أستودعه سر قلبي المعذب فى تنور الحياة الموحشة التى يضطرم جوها بالصمت المتوهج والوحدة المستمرة ... كنت أخى وصديقى، وأنا أبيد كما تبيد الأيام والليالى فى كهوف الحياة الدنيا ... كنت أخى وصديقى، وعواطفى تزأر وتجأر فى باطنى كأنها وحش جريح متألم ثائر لا يرى مَن جرحه لينتقم ... فالآن وقد جددت الدنيا أساليب تعذيبي عذاباً ضعفاً من الآلام ... الآن وقد أوجدتنى الحياة ما أريده، ثم وضعت بينى وبينه سداً يعصف ما وراءه من أشواق ويقف دونى فلا أنفذ منه ... الآن وأنا أشتعل وأتفانى من جميع نواحى ... الآن وأنا أتوثب فى قيود مرخاة تمنحنى الحركة وتمنعنى دون الغاية ... الآن وأنا أمزق جو حياتى بزئيرى وأنيابى ومخالبى، وأحرقه بوجدى ولوعتى واشتياقى ...

الآن أين أنت أيها الحبيب؟ يا أخى وصديقى

انظر إلىّ — أيها الحبيب — من وراء هذه الأسوار النيمة التى تفصل بين الحياة والموت ... الأسوار التى تمشى إليها الحياة كلها ساعة بعد ساعة دائبة ماضية لا تقف، فإذا بلغتها ابتلعتها من حيث لا تشعر ولا تتوقعُ ... انظر إلىّ — أيها الحبيب — وتكلَّم بكلامٍ من شعاع مضيء حتى يُفهمُنى حقيقتى الحية، ويضيء لعينى هذه الظلمات التى تمترك بين يدى فى مد عينى ... انظر إلىّ — أيها الحبيب — واسكُبْ فى قلبي ورُوحى حقيقة الإيمان الحىّ الذي لا يموت ... انظرْ إلىّ واصحبْنى فأنا الذى لا يصاحبُ الأحياء من الناس، لأنهم لا يعرفون معنى الحياة إلا فائدة تلد فائدة، كما يلد بعضهم بعضاً فى مَشيمَة من الكره والعنتِ وآلام المخاضِ وأمشَاجٍ من الدم يشْخَب من حولها ويتضرَّجُ ويقيحُ بعضُه فى بعض

ولكن ... ولكن ما أكذب النَّفسَ على النفْس! أنتَ هناكَ بحقيقتك الخالدة التى تحيا بأمر الله فى جو السماء، وأنا هنا بحقيقتى الفانية التى تموت يوماً بعد يوم بأمر الله فى جو هذه الأرض ... أنتَ هناكَ وأنا هنا، وبينهما البرزخ الذى لا يجوزه الروح إلا بعد أن تتطهر من أدران هذا الدم المتجسِّد فى أجلاد الإنسان ... أنت هناك وأنا هنا، فكيف أخلعُ من تُرْوتى التى أنا بها أنا؟ كيف أخلع من جسدى؟ ومع ذلك ...

« فى القلب تعيشُ الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تفنى
وفى القلب ... تحْفَر القُبُور العزيزة التى لا تُنسى
لم أفقِدْك — أيها الحبيب — ولكنى فَقدتُ نفسى »

ذكرى الرافعى

لستُ أدرى! فأنا أذكر الرافعىّ. أعرفهُ أديباً شاعراً فيلسوفاً ... رجلاً قد انصرف بهمَّه إلى الأدب والفكر يجيدُ فيهما ما يجيد، ولكنى حين أذكره لا أجده فى نفسى إلا الصديق وحده. لم أعاشره طويلاً حتى أقول إنى أرعى للناس خبره وأعرف عنه ومن أمره ما لا يعرفه غيرى، كلا لست أدعى ما ليس عندى ولكنى كنت أبداً معه بحبى له وصداقتى، وكان هو أبداً يحوطنى بروحه فى أنفاس من حنانه وحبه. كنا روحين تناظرنا من بعيد وتناسمنا من قريب فعرفته وعرفنى. كان بيننا سرٌّ جامعٌ لا أدرى كيف أصفه، ولكن كان من يعرفنى ويعرفه يجد آثاره ويرى من بعض بيناته ما لا أحبُّ أن أحدِّثَ به. ومع ذلك فأنا أقصِّر فى حقه ما لم يقصِّر أحد ممن توجبُ عليه الصداقةُ بعض واجباتها، ولم يكن ذلك، لأنى لا أريد، بل لأنى لا أستطيع ولا أطيقُ. فما زلتُ كلما ذكرتُ الرافعى — وقد مضت سنوات — أجد لذعةَ حُزْن فى قلبي تُرسلُ آلامها فى كلّ سانحةٍ من ذكرى

ولكن الله لم يُخْلِ حقّ الرافعى من رُجلٍ يقوم عليه ويُحسنُ النظر فيه، فهيأ له الأخ « محمد سعيد العريان » ردّ — بوفائه لذكرى الرافعى — كل ما وجب على أصدقاء الرافعى وأبنائِه وتلامذته والمتَّبعيه. فقد بادر « سعيد » بعد وفاة الرافعى، فأنشأ يحدّث الناس بأخباره ما دق منها وما جلّ، ويضع بين أيدى الأدباء أكثر العوامل التى يتكوّن منها تاريخ الرافعى، والتى كانت تعمل فى إنشاء أدبه وتوجيه بيانِه. وفتح « الزيات » باب القول فى الرافعى له وعليه حتى اجتمعتْ من ذلك طائفةٌ من القول صالحةٌ لدراسة أدب الرافعىّ دراسة جيِّدة لمن ينصبُ نفسهُ لها. ولكن الأخ « سعيد » لم يرض أن يقنع بما كتب

هو عن الرافعي وجمعه في كتابه الذي طبعه بعد وسماه « حياة الرافعي » ، فدأب على إظهار ما لم يظهر من آثار الرافعي قديمها وحديثها ، وقد كان آخر جهد بذله في ذلك سعيه لإنقاذ مؤلفات الرافعي كلها من الضياع . فانتدب لجمعها وتصحيحها ومراجعتها وطبعها بعد ذلك سلسلة واحدة تقوم بنشرها « المكتبة التجارية » وقد كاد يفرغ من طبع أكثرها ، وأنا أعلم أن بين يديه الآن كتاباً من كتب الرافعي التي لم يتمها وكان أصولاً مبعثرة رديئة الخط كثيرة الاضطراب ، وهي أصول الجزء الثالث من كتابه الجليل « تاريخ آداب العرب » ، واستخراج هذا الجزء وحده دون سائر كتب الرافعي يعد عملاً عظيما ووفاء نبيلاً لرجل هو كسائر الأدباء : حياته حياة أدبه ، فإذا مات لم يجد في هذا الشرق الغافل من ينفخ الحياة في آثاره الأدبية مرة أخرى

إن هذا التراث الذي خلفه الرافعي للأدب العربي ، قد جعله الله أمانة بين يدي « سعيد » فهو يؤدي اليوم إلى الناس هذه الأمانة وافية كاملة لم ينتقص منها شيء — إلا شيئاً يعجزه أن يهتدي إليه أو يقع عليه ، وغداً يجد الناس بين أيديهم كل ما كتبه الرافعي حاضراً لم يضيع شيء منه وكذلك يجد من يريد سبيله إلى معرفة الرافعي من قريب وتقديره والحكم له وعليه

مصر المريضة

ألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل بك ، أستاذ علم الصحة بكلية الطب ، في المؤتمر الحادي عشر للمجمع المصري للثقافة العلمي — محاضرة هي تصوير للآلام التي تعانيها الصحة في مصر ، وتمثيل للحقائق المؤلمة المخيفة التي تعمل عملها في هدم البناء الصحي للأبدان المصرية . وقد نشر صديقي الأستاذ « فؤاد صروف » قسما من هذه المحاضرة في مقتطف مايو سنة ١٩٤٠ ، فأخذتها وقرأتها وأنا أرجف بالرعب والفزع لما مثل لعيني من تلك الحقائق البشعة الشنيعة ، وهي على بشاعتها وشناعتها متفشية منتشرة تغزو مصر من جميع نواحيها غزواً مهلكا مبيراً ، ثم لا تجد من يرده عنها من الجنود المجندة المقاتلة التي هي كل صناعة الطب وأسباب صناعته

لقد عمد الدكتور الوكيل إلى الإحصاء الصحي في مصر ، فبان منه أن البلاد إذا لم تتدارك أمر الصحة بأوثق العزم وأحكم التدبير وأسرع العمل ، فسوف تنتهي إلى فناء محقق يأكل القوة المصرية كما تأكل النار يبس الهشيم . ونحن في فاتحة عصر رهيب قد بدأ بالحرب المجتاحة ، تأتي معها الأوبئة والأمراض وتجر في أذيالها أوبئة أخرى وقحطاً ومجاعة — إلا أن يشاء الله — والعالم كله يخشى ويتأهب ويستعد ، فهل عمدت مصر إلى جعل الوقاية الصحية تدبيراً ممتداً مع أسوأ الفروض التي يمكن أن توحي بفرضها أوهامنا ومخاوفنا وتشاؤمنا من الأيام المحاربة والأيام التي تلقى عن عواتقها أوزار الحرب بعد أن تأكل القوة بعضها بعضاً في ميادين البغي والقتال ؟

يقول الدكتور الوكيل : « ونحن إذا رجعنا إلى نسبة الوفيات العامة سنة ١٩٣٧ في مصر وثلاثين دولة أخرى في مختلف القارات متدرجين من الأسوإ إلى الأفضل ، اتضح لنا أن مصر في رأس هذه القائمة ؛ ومن هذه البلدان : الهند واليونان وبلغاريا وفلسطين » ... لا ، بل أكثر من ذلك ، وهو أن الإحصاء يدل دلالة قاطعة على أن الأطفال هم ٨ر٥٥ ٪ من مجموع الموتى ، وأن هذه النسبة في صعود متواصل حتى في هذا المهد الذي نحن فيه . بل انظر إلى الأصل فالدكتور الوكيل يقول : إنا إذا أخذنا الأمراض المتفشية كالبلهارسيا والأنكلستوما والرمد والسل والأمراض المقلية والملاريا والتيفوس والتيفود والدفتريا والانفلونزا الحادة والحمرة وغيرها ، ثم جمعنا بعضها إلى بعض مرضاً مرضاً كانت ما يربو على ٥٠ مليون مرض ، فإذا وزعت هذه الملايين على المصريين أصاب كل شخص ثلاثة أمراض في وقت واحد

وهذه النتيجة المؤلمة قد أفضت إلى هذه العناية باهتمام القائمين على أمر الصحة والتعليم بالحضر دون الريف ، وبالذي كان من طغيان الجهل واستبداد الفقر بطبقات الشعب التي يتكون منها السواد الأعظم . وقد وضع الدكتور الوكيل مشروعه لمكافحة هذه الحالة ، فهل يمكن أن تكون الوزارات المختصة قد عرفت حق مصر فهبت إلى القيام بواجبها في الدفاع عن البلاد لإنقاذها من براثن هذه الأعداء المتعادية المتحالفة على قتال الروح والحياة في الشعب المصري ؟ ذلك ظننا ، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

محمود محمد شاكر